# ستيف سابيلا... من القدس إلى المنفى!

نجوان درويش

في عمله الأخير «منتالوبيا» Mentalopia، يبتكر الفنان ستيف سابيلا (١٩٧٥) مفردة جديدة ... اسماً لعمله الذي يتكوّن من بورتريهات فوتوغرافية لمجموعة من اقرانه الفنانين من بلدان مختلفة. كلمة منتالوبيا بخلاف يوتوبيا - التي اشتقت منها - تتشاكل مع المفهوم المكاني لليوتوبيا، وتراهن على الحالة الذهنية بوصفها اليوتوبيا الوحيدة الممكنة ربما ... في الفن على الاقل.

مزج سابيلا البورتريهات التي التقطها لمجموعة فنانين حول العالم، بطوابع بريدية كانما يتبادلون عليها بلدانهم. هكذا، ترى الفنانة اللبنانية لميا جريج على طابع بريدي فلسطيني يحمل صورة القدس، فيما نشاهد ستيف نفسه على طابع لبناني. اما بقية الفنانين فقد مزج طوابعهم بشكل عرضي تارة، وبشكل ينطوي على مقاصد طوراً: وإذا بالفنانة التركية تجد نفسها على طابع ارمني، فيما الفنان الأرمني وجد نفسه على طابع أذربيجاني، وهكذا دواليك ... إنها فكرة ارتجاج الهوية، من خلال التلاعب بسكونها الذي تمثله الطوابع البريدية. هنا، يبدو الطابع - الذي هو اصلاً تمجيد لمكونات الهوية - سؤالاً لغوياً وجارحاً عن الهوية والتجاور والحوار. والافكار هي حصاد ورشة احتضنتها في إسطنبول بعنوان «جيران في حوار»، وشارك فيها ١٠ فنانين من دول متجاورة، انتج كل منهم عملاً خلال إقامته التركية. وهذه الأعمال ستُقدّم إلى «متحف سرابيفو للفن الحديث» هذا الشهر، حيث سيعرض سابيلا مشروعه «منتالوبيا» مع اعمال الفنانين الآخرين.

يجمع «منتالوبيا» المستويين البصري والمفهومي. فالحلة البصرية/ التقنية للفكرة متماسكة التكوين، بخلاف الكثير من النتاج «المفهومي» (conceptual) الذي يستسلم هذه الأيام للسهولة والركاكة، ويرتجل «صرعات» غير موظفة فنياً، فضلاً عن الضعف التقني في التنفيذ. الشغل على الطوابع البريدية، هو بحد ذاته مقاربة نقدية لأحد مظاهر الفولكلور في زمن العولمة والبريد الإلكتروني، مقاربة تخلق مجالاً لتوليد أسئلة عن الهوية والحدود والسلطة والهيمنة والزمن. وإذا تذكرنا أن «الإمبراطورية البريطانية» كانت وراء إصدار أول طابع العام ١٨٤٠، فستفهم تلك العلاقة الخفية بالتاريخ التي جعلت سابيلا ينطرق ضمناً إلى فكرة الكولونيالية من خلال طابع البريد.

والمشروع الذي يستمد نسغه من الطوباوية الذهنية، يطرح، ايضاً، اسئلة الراهن الفلسطيني، والتشوّق الطبيعي للوحدة والتكامل مع بقية الجسد العربي. وهي هنا اسئلة طبيعية يطرحها فنان خارج الإيديولوجيا، وبعيد كل البعد عن الشعارات. فوضعه مثلاً صورة لفنانة لبنانية على طابع للقدس، يشي بحال التفاؤل التي سادت الشارع الفلسطيني اثناء صد المقاومة اللبنانية للعدوان الإسرائيلي الصيف الماضي. وكذلك الأمر مع وضعه لصورته الشخصية على طابع لبناني عن «مباراة بطولة البريدج» يعود إلى العام ١٩٦٥. لكن سابيلا تلاعب في تاريخ الطابع؛ إذ حوله في السطر المكتوب بالعربية إلى ١٩٧٥ أي تاريخ ميلاده هو، بينما حافظ على السطر الأعلى بالفرنسية الذي يشير إلى تاريخ الطابع الأصلي.

من اعمال سابيلا

قبل سفره إلى اسطنبول، تجوّل سابيلا في القدس محاولاً العثور على موضوع عمل فني يستلهم فكرة «جيران في حوار» من خلال تاريخ القدس. اي جيران واي حوار ... سال نفسه مراراً وسال من حوله. ابرز الاقتراحات التي قُدّمت له هي ان يشتغل على الموروث العثماني في القدس المليئة بآثار تلك «الجيرة» الإشكالية ... القريبة جداً والنائية في ذات اللحظة. فالمواد الخام كالآثار المعمارية العثمانية التي تملأ القدس او حتى تلك الوفرة من المخطوطات العثمانية في مكتباتها واطلال العلاقة بين القدس واسطنبول؛ جميعها تغري فنانا من القدس باستثمارها في عمل فني. او هذا على الاقل كان رأي فنان شغوف بالتاريخ الحضاري لمدينة القدس مثل كمال بلاطه. ولكن سابيلا بعد ان حاول تناول فكرة الاشتغال على اثر مشترك بين القدس واسطنبول، وبعد ان فكّر باشياء مثل العمل على بوابتين واحدة في القدس واخرى في إسطنبول صممهما معماري واحد هو «سنان باشا». وصل في النهاية إلى نتيجة مفادها ان لا علاقة ذاتية تربطه بالموضوع وان تجربته الشخصية لا تغذي اختياره للموضوع، الذي قد يكون جذاباً من الناحية الثقافية؛ لكنه لم يمس ستيف شخصياً وبالتالي لا سبيل لمقاربته في عمل فني ... وسرعان ما بدات أسئلته الذاتية، التي تبرز نزوعه المثالي الحالم، في الظهور وسرعان ما أوصلته إلى «منتالوبيا».

(Mentalopia) جاء ليعكس احد الأسئلة الأثيرة لدى هذا الفنان، الا وهو سؤال الهوية القلقة: منذ معرضه الفوتوغرافي الأول «بحث» (١٩٩٧) والثاني «هوية» (٢٠٠١)، بدا سابيلا مشغولاً بفكرة الهوية والبحث عنها في زمن الاستلاب، و«الاسرلة» التي تعرّض لها جيل من الفلسطينيين ولدوا تحت الاحتلال - وخصوصاً في القدس - وعاشوا عند حافة «الزمن الإسرائيلي» الذي لم تُدرس بعد تأثيراته السوسيولوجية والنفسية على المجتمع الفلسطيني - بل ويفضّل التيار العام تجاهلها - ولعل الفولكلور الشعاراتي اعفانا لفترة طويلة من النظر إلى المرآة وملاحظة الشروخ التي اصابت الهوية، فالهوية الفلسطينية في القدس وبقية فلسطين المحتلة ليست البكر المصون كما اخبرنا الشعراء الغنائيون!.

في السنوات الخمس الأخيرة، وصل ستيف إلى تحولين في اعماله. الأول على مستوى المضمون. إذ ظهر الموضوع الجمعي أو الوطني في اعماله ... وبدا كانه خرج من ذاتية اعماله الأولى. ولا شك في أنّ ذلك يرتبط بتطور وعيه السياسي، بعدما دفعته اعماله الذاتية لأن يكون جزءاً من المشهد الفني الفلسطيني.

في «حتى النهاية ... روح المكان» (٢٠٠٤)، جمع احجاراً من مناطق من القدس، يشعر بانها مناطقه الشخصية. ثم التقط صوراً من تلك الأماكن، وقام بتظهير الصور على الاحجار التي عرضها مرفوعة (مصلوبة؟) على قضبان حديدية. بعدها قدّم مشروعاً بعنوان «كان ياما كان» (٢٠٠٥)، يستلهم فكرة «صندوق العجب»: خمسة صناديق مستطيلة في كل منها عرض صوراً تروي حكاية محددة، على المتلقي أن ينظر إليها من الثقب. وكي يؤكد البعد الشعبي والجمعي لصناديقه، طلب الفنان من خمسة تشكيليين مختلفين أن يرسموا الحكاية على سطح الصندوق.

اما التحول الآخر فكان فنياً. إذ راح يتجاوز نفسه ويخرج من دور «المصوّر الفوتوغرافي»، ليتّجه في اعماله اخيراً نحو «فن مفهومي» (conceptual art) تمثل فيه الفوتوغرافيا وسيطاً لتنفيذ الفكرة. هكذا، لم تعد الفوتوغرافيا إلا وسيطاً كما لاحظنا في عمله Exit (مخرج - ٢٠٠٦). قدّم سابيلا في «مخرج» سلسلة صور تظهر أيدي مسنّة (التقطها في مستشفى في ايرلندا)، تخرج عبر «البروجيكتر» على جدار ابيض في الليل. بدت تجليات الأيدي مثل منحوتات من شغل الزمن، ووثائق لها إحالات اجتماعية وطبقية. وهو عمل صادم وقاس يخرج على الشغل الجمالي الذي وسم عمله منذ البداية.

لكنّ «إشكاليته»، الكبرى تبقى مدينته القدس التي يعدّ حقائبه لمغادرتها إلى لندن لإكمال دراسته، او لأنه وصل إلى شعور بأنّ «مدة صلاحيته» انتهت في هذه المدينة التي اقنعنا انها الآن في المنفى! «القدس في المنفى» فكرة مشروع جديد يعمل عليه سابيلا، بالتعاون مع كاتب هذه السطور، تُسقط مفهوم المنفى على المكان، وتذهب إلى تقصّي «صورة القدس» في المخيلة الفلسطينية والعربية أيضاً. يطلب «القدس في المنفى» من جميع من يمنعهم الاحتلال من بلوغ القدس، أن يسجّلوا اول صورة تتبادر إلى أذهانهم عند ذكرها، ويرسلوها بالايميل إلى موقع المشروع (www.jerusalem-in-exile.net). وسيحوّل سابيلا الوصف إلى صور فوتوغرافية. ومن المفترض ان تمثل التجربة نواة مشروع مستمر لدراسة صورة القدس. تلك الصورة الإشكالية المحتلة برمزيات الجغرافيا المقدسة كلّها، وبحيوات ضائعة وزفرات منطفئة باسرها ... صورة القدس المحملة ايضاً وايضاً بفولكلور هائل من الخطابة والشعارات، فيما الاحتلال يوغل في هوسه بالاستحواذ عليها، شبيهاً بجرذ ضخم يقضم اصابع طفلة نائمة، وهو يغني لها بصوت عال «اورشليم من ذهب»!.